نظرات في سورة يوسف (12)

والله غالب على أمره

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وعبارة (من مصر) لوصف المشتري والتعريف بمكان سكناه، وقد يكون لبيان أن شراءه له كان من مصر، بما يوحي أن يوسف ربما تعرض للبيع والشراء عدة مرات، فربما باعته القافلة في الطريق تخلصاً منه، ثم بيع بعدها مرة أو أكثر، حتى استقر في يد هذا الرجل في مصر، وستخبرنا الآيات فيما بعد أن هذا الرجل هو العزيز، والمعتاد أن علية القوم يكون لهم من ينتقي لهم أجود البضائع، أو يقوم التجار أنفسهم بفرزها لهم وعدم عرضها على غيرهم.

ويعود الرجل بيوسف إلى بيته ويطلب إلى امرأته أن تكرم مثواه، فمثله لا يعامل معاملة الخدم والعبيد، وعلل طلبه بالقول: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا)، فسيماه عليه السلام توحي لمن يراه بأن له مستقبلاً فهو مظنة النفع لمن يقتنيه، وسرعان ما يدخل القلب فيتمنى صاحبه أن يتخذه ولداً، واللافت أن قول العزيز لامرأته عن يوسف عليه السلام، هو ذاته الذي قالته فيما بعد امرأة فرعون في موسى عليه السلام، وكأن الله تعالى يجعل لأنبيائه منذ صغرهم ما يدخلهم في القلوب ويشعر المحيطين بهم بنبوغهم وشرف المكانة التي تنتظرهم.

وقريب منه ما قال قوم صالح له (يا صالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا)، أي كنا نتوقع أن تصبح سيداً، ونرجو لك مستقبلاً ومكانة، وقول قوم شعيب عليه السلام: (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)، أي كنا نعتبرك الحليم الرشيد الوحيد فينا.

ولا حاجة، فيما أرى، لتفسير رغبة العزيز بتبني يوسف عليه السلام، بأنه كان عقيماً، فالتبني لا ينحصر فيمن لا أولاد عندهم، كما أنه ليس بالضرورة أن تكون مراودة امرأة العزيز ليوسف بسبب عجز جنسي عند زوجها، فكم من الرجال والنساء الذين يخونون أزواجهم مع وجود البديل الحلال.

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)، بهذا التمكين في قلب ذاك الرجل وبيته، بدأ تمكين الله تعالى ليوسف في الأرض، فلا رحيل بعدها إلى غيرها، ثم هذا البيت مدخله إلى التمكين السياسي؛ فهذا البيت سبب سجنه، ومن سجنه أوّل رؤيا الملك والتي كانت مدخلاً لأن يصبح عزيزاً في مصر، وأمر آخر هو أن وجود يوسف عليه السلام في بيت العزيز تعريف له بأهل السياسة وكيفية إدارة شؤون

الدولة واتخاذ القرارات فيها، والملاحظ أن السجن الذي كان فيه، كان مخصصاً، كما يبدو، للفتيان الذين يعملون عند كبار رجال الدولة، ما يتيح له مزيداً من التعرف على كثير من التفاصيل اللازمة لمركزه القادم.

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره)، وقد سبق في حلقة ماضية الكلام عن تأويل الأحاديث، وأنها تفيد معرفة مآلات الأمور وعواقبها.

(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، فهو الذي يحكم بما تكون النهايات، والعاقبة عنده للمتقين، لكن لقصر نظر أكثر الناس ولقلة علمهم؛ فإنهم يحسمون أنفسهم مع من يرونه يمثل الكفة الراجحة، ولو أدركوا أن القوة بيد الله جميعاً، وأنه غالب على أمره ما سلكوا كثيراً من المسالك، وهذا القسم التعقيبي في الآية يمثل قانوناً ربانياً يؤدي في سياقه عدة رسائل: أولها: وظيفته في قصة يوسف، حين يشير إلى يوسف وهو من القليل الذي يعلم فيستقيم، وبمقابله إخوته ورجال القافلة وامرأة العزيز، وعاقبة الجميع، وثانيها: أنه رسالة موجهة لكثير من الناس زمن النزول الذين يأخذون مواقف معادية أو حتى محايدة، من الرسول ودعوته؛ لأنهم يرونه وصحبه ضعافاً، فيما يرون مع قريش القوة والمنعة، وهو كذلك رسالة للناس حتى يوم القيامة.

وبعكس هؤلاء كان محمد صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من أصحابه، من القليل الذين علموا يقينا أن الله غالب على أمره، فحملوا دينه وصبروا على دعوته، ولم تلفتهم عن غايتهم القوة المادية لخصومهم، حتى جاءهم نصر الله والفتح، ورأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.